مصر بين التكتل والحياد (١)

للاستاذ ثروت أباظه

« ياعم واحنا مالنا » تعبير يطلقه قوم منا ، يحافظون على جهده وماسهم الجهد ، يكفي الفرد منهم أن يلقي إلى داره نظرة وإلى جيبه أخرى حتى إذا اطمئن إلى قوت يومه ورأى قوت الغد على بعد يحتاج منه إلى أيسر محاولة لوى عنه عنقه وأغمض عينيه وأطلق القولة المستكينة « ياعم واحنا مالنا » .

ونحن اليوم نتساءل أنشارك في المترك الدولي ونصير دولة تؤيد وجودها بالعمل إلى جانب الأمم أم نقبع ، في شمالنا الشرقي من أفريقيا ننظر ، فإذا أعجبنا أمر استل كتابنا أقلامهم يمدحون ، وإن غضبوا شحذوها ناقدين . نتساءل فيما لا نتساؤل فيه إن كنا نريد العالم ليقول عن مصر إن شعارها الأوحد « ياعم واحنا مالنا » فنوما ، أو يقظة المتفرج لا يشارك بغير التصفيق أو السخط . . وإن شئنا من العالم نظرة ترفعنا إلى مستوى الأمم العاملة في الحياة ، المشاركة فيها بالسيف والثقافة ، وإن شئنا أن نثبت للعالم أن جيوش الفراعنة ومحمد علي هي هي جيوش الفاروق ، وأنها ليست — كما يظنون — جيوشا حسبها من القتال السير في التوديع والاستقبال . . إن شئنا ذلك فهلم !

ويا أيها الشباب انى اعيذكم وأنتم بواكير الأمل أن تمدوا إلى الأمور أبصاركم مسترخية لينة ، فإنها — لاعفاها الله — قتالة الحسن ، فتاكة الجمال ، تبدو في الملاحة الشرقة وتقتل في السكرة المنتشية والابتاس البهيج . . ها هي ذي تشير إلينا نحن الشباب أن نهب خلفها مرددين إن مصر قوية بجيوشها ، عتيدة برجالها ، جبارة بعتادها . . كلام إن قلناه فارت منا الدماء وثارت فينا الوطنية بعاطفة حادة لا سبيل لنا عليها — حتى إذا اطلقنا فيها العقل وقيدنا منها الثائر وجدنا قولنا قولا لا برهان وراءه ، فإن أكبر الجيوش اليوم لا تستطيع مطلقا أن تعتمد على نفسها دون مؤازرة الغير .

إن ميزانية تركيا تقارب ميزانية مصر . وتركيا تنفق على جيشها نصف ميزانيتها ، وهذه أكبر نسبة تنفقها دولة على جيشها ، وقد استطاعت تركيا بذلك أن تكون جيشا يقف مع أكبر جيوش العالم على قدم ، ومع ذلك فتركيا تعترف أن جيوشها لا تستطيع إلا أن توقف العدو حتى يدركها المدد . . فهي في حاجة إلى مدد ، وهي في حاجة إلى سند ، وهي بذلك تعترف .

أيها السادة ، قال القدماء : إن الإنسان لا يستطيع أن يخرج من ملك ربه ، فإذا كان الإنسان هذا المخلوق الصغير لا يستطيع ذلك . فما ظنكم بالدولة ؟ هل يمكنها أن تخرج من ملك ربها ؟ .. إننا إذا أعلنا هذا الحياد كنا كمن رأى معركة ثائرة تتقاذف فيها السكاكين وتتطاير الأطباق وتتلاحق الهراوات ، فجاء هو وجلس بين المتشاجرين ، وصاح بأعلى صوته أنا لا شأن لي بهراكم فلا تصلوا إلى بأذى ، ثم أغمض عينيه ، وأقفل أذنيه ، وأطبق شفتيه وأطمئن . هكذا يكون حيادنا . . حياد تحول بيننا وبينه طبيعة الأمور وما جريات السياسة الدولية .

حيادا تريد ؟ فما هي الوسائل الواجبة علينا لذلك ؟ يجب علينا أن نعلن الدول الأخرى بموقفنا هذا ، وأصبح لزاما عليهم أن يخضعوا للقانون الدولي فلا يمدوا إلينا عدوانا . . ولكن إذا اعتدت علينا واحدة من الكتلتين . . ماذا نفعل ؟ نعلم أنه خرق للقوانين واعتداء على الحرمات الآمنة ، وانحطاط في المعاملات الدولية . . نعلم ذلك ولكن ماذا نفعل ؟ . . نرد العدو ونذود عن الحياض ، ونمنع الدمار . . ولكن . . وحدنا ! ! نستعين بالكتلة الأخرى . . لقد كنا محايدين . . سوف نقول لها إدفعي عن الحرمات الدولية . . دافعي عن الشرف الحربي . . أدركي السلام العالمي بالحرب المدمرة . . قد تجيب هذه الكتلة وان يكون الدافع لها واحدا من هذه الأسباب . . ستجيب ولكن لتقتضي الثمن . . الثمن الذي ما تزال نبذله حتى اليوم ولم نوفه . . حريتنا ثمن حيادنا . . أي ثمن ! تجربة عرفناها . . أنعيدها ؟ الأمر لكم .

قد يرد على هذا بأن الأيام غير الأيام ، وأن الذي حدث في الماضي لا يحدث اليوم ، ولكن ألا ترون إلى موقفنا ونحن نلجأ إلى الدافع عنا كالطفل تمنع عن مساعدة صديقه حتى إذا تعثر صرخ إليه يستنجده فإذا أنجده فإنه لا يلبث ينفض عنه التراب ويسخر منه : (ألم أقل لك . . ألم أحذرك . . انظر الآن ماذا فعلت بنفسك) كرامة مبذولة . . وخزي كبير !

(١) ألقيت في المناظرة التي أقيمت حول هذا الموضوع بدار الحكمة في يوم ١٩ مارس